تطبيقات الدولة القومية في أوربا

د. بشرى محمود الزوبعي
مركز دراسات وبحوث الوطن العربي
الجامعة المستنصرية

المقدمة :

شهدت بداية العصر الحديث ظهور كيانات سياسية جديدة وخطوات نحو التكامل بين كيانات قائمة ، لعبت دوراً مهماً في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في القارة الأوربية . وقد تبنت الشعوب الأوربية مبدأ القومية واعتبرته هدفاً وغاية نحو بناء الدولة القومية على أساس فلسفة الأمة التي تستند الى أشتراك أبنائها بروابط اللغة والتاريخ والشعور المشترك . فكان ظهور الدولة القومية كقوة تقابل وتصارع النظام الاقطاعي والكنيسة والى الحد الذي أصبحت بديلاً عنها وتشكل مظهراً من مظاهر بلورة الفكرة القومية عند الشعوب الأوربية . واخذت هذه المظاهر حركة الانبعاث في عصر النهضة وقيام الأمبراطوريات الأوربية واصبحت الدولة والكيان السياسي يضم قوميات عديدة تخضع لسيادة دولة واحدة[1] .

ولكي تكون الصورة واضحة لابد من القاء نظرة كاملة على نماذج تجارب نشوء الدولة القومية في أوربا وسوف نتناولها على وفق الترتيب الآتي :-

1. أيطاليا
2. المانيا
3. فرنسا
4. انجلترا

المبحث الأول : نماذج مختارة لتطبيقات الدولة القومية

1- ايطاليا

كانت خارطة ايطاليا السياسية في القرن الثامن عشر تشير الى أنها مجزأة الى عدد من الدويلات والممالك الصغيرة على شكل ثلاثة كيانات ، ففي أقصى الشمال كانت هناك مملكة سردينيا ، وفي الغرب لومبارديا ودوقية ميلانو في الوسط ، وجمهورية البندقية في الشرق ، وكل مملكة كانت تقيم عدداً من المقاطعات والى الجنوب في الكيانات الثلاثة هذه كانت هناك دوقيات بارما ومورنيا وتسكانيا . ولم تكن جمهورية جنوا الواقعة الى الغرب من هذه الدوقيات الثلاث تختلف عن جمهورية البندقية . وفي وسط ايطاليا كانت هناك الولايات البابوية بضمنها مدينة روما مركز البابوية ، وفي القسم الجنوبي كانت تشكل مملكة نابولي التي تعد أوسع ممالك ايطاليا[2] .

وفي تلك الحقبة لم يكن في ايطاليا أي ملامح مما يمكن أن نطلق عليه بالقومية الايطالية على الرغم مماكان يتناقله المفكرون والسياسيون الايطاليون من مفردات ذات صلة بكلمة الوطن ، وهكذا بدت ايطاليا في عصر النهضة تقوم على مافيها من ثروات ضخمة ، ولكنها أنهارت أمام غزو الفرنسيين الذين نهلوا من حضارتها وبنائها الاقتصادي ونظامها الأرضي والسياسي على الرغم مما قاموا فيها من اصلاحات حتى هزيمة نابليون في العام 1814[3] .

اذ عمل نابليون على دمج الدويلات الايطالية بعضها مع بعض وقضائه على النظام الاقطاعي ، وقد أستند في ذلك إلى أربعة مبادىء أساسية[4] .

1. المبدأ الشخصي : أي تأسيس مملكة ايطاليا باعتبارها مملكة نفوذ لشخص نابليون وليست مملكة فرنسية[5] .
2. المبدأ الاتحادي الفدرالي : وتمثل بتشكيل دولة متحدة تنضوي تحت حماية وقيادة نابليون .
3. المبدأ السلالي : ذلك عندما قام بانشاء مملكة نابولي لأخيه جوزيف ، ليستعيض عنه بصهره وانشاء أمارة لوقا ودوقية ماسار كرارة لأخته اليزا .
4. المبدأ الاقطاعي : ذلك باقطاع أثني عشر اقطاعاً لماريشلاته وضباطه .

يتضح من ذلك أن كل الاحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية كانت تحت نفوذ وتصرف نابليون ، مما آثار ذلك حفيظة الايطاليين وعدوّه مساساً بارداتهم الوطنية وتقليلاً من شأنهم الحضاري فأخذت هذه الردود تتفاقم في الوجدان وضمير الفرد الايطالي لتتبلور على شكل حركات تمردية كانت في بدايتها تسعى الى التخلص من النفوذ النابليوني وتحرير البلاد من هيمنته ، ولم تكن تمثل في محتواها ابعاداً قومية بالمعنى الصحيح حيث كان قادتها من النبلاء والاشقياء وكهان ومهربون أنضموا الى هذه الحركات بقصد تحقيق مطامع شخصية من سلب ونهب تحت غطاء الحركة الوطنية .

ولم تتمكن هذه الحركات التمردية من تحقيق أي أهداف وطنية ، الامر الذي دفع الى تأسيس جمعيات سرية كانت أشهرها جمعية الفحامين (الكاربوناري)[6] Carbonari ، صاغت أهدافها لمحاربة وطرد الفرنسين من البلاد ومع ذلك يمكن القول : أن النظم والقواعد التي تقوم عليها الحياة القومية في ايطاليا قد انبثقت في أثناء الاحتلال الفرنسي عندما الغيت الاقطاع وخضوع البلاد الى القانون العام والغيت ضريبة العشر والاتاوات التي تدفع للأمير وظهور أصلاح في نظام الأراضي ونظم العمل الأداري واصلاح جهاز الموظفين وايجاد نظام الجيش واتباع مبدأ القرعة فيه الذي بفضله وجد أبناء ايطاليا أنهم بتماس مع بعضهم ، وللمرة الأولى وجدوا انفسهم ينصهرون ويختلطون مع بعضهم واخيراً يعود الفضل الى وحدة النظام الاقتصادي الذي فرضه نابليون نتيجة الحصار في لم شمل الايطاليين[7] .

وفي العام 1815 عند عقد مؤتمر فينا وتقرر فيه اعادة الكيانات التي قام نابليون بتأسيسها الى وضعها القديم ،وكان للمعاهدات والاتفاقيات السرية التي عقدت بين مدن نابولي ومترنيخ[8] Metternich دوراً بارزاً في تمزيق اوصال ايطاليا وتجزئتها من جديد والقضاء على مشاعر الايطاليين القومية ونتيجة للنشاط الذي كانت تمارسه الجمعيات السرية قامت ثورات منذ حلول العام 1820 قامت في مملكة نابولي ثورة عارمة ضد فرديناند الاول المستبد واجبر على منح البلاد دستوراً حراً الا أن تدخل الجيش النمساوي في 1821 قد احبط تلك الثورة والغي الدستور واصبح فرديناند اكثر بطشاً واستبداداً . وبعد أن قمعت ثورة نابولي ثارت مملكة سردينيا ، وكان قادة هذه

الثورة من افراد الجيش الذين ينضون تحت لواء جمعية الكاربوناري ، وقد تمثل مطلبهم الأساسي بالدستور وحققوا مكاسب شعبية ، الا أن تدخل المزيد من القمع والاستبداد من الحكام والنمسا[9] .

في العام 1830 نشبت الثورة في فرنسا فقد أطيح بحكم الملك شارل العاشر Charles X[10] واقيمت ملكية دستورية إثر تنصيب لويس فيليب ملكاً على فرنسا ، ولتنشر الثورة في أماكن عديدة في أوربا .

وفي ايطاليا قامت جمعية الكاربوناري بثورة في الولايات البابوية ، ولكن وجد ثوار ايطاليا موقفاً مناهضاً من ملك فرنسا الذي وقف جنباً الى جنب مع الجيش النمساوي ، ليقضوا على ثورتهم .

في العام 1836 تأسست جمعية ايطاليا الفتاة[11] young Italy من قبل جسي ماتزيني[12] Mazzinis الذي كان يدعو الى اقامة جمهورية ايطالية حرة وتحقيق الوحدة القومية أو الجمهورية او الاصلاح ومن ثم طرد النمساويين من ايطاليا .

وفي العام 1848 استطاع جوزيف غاريبالدي J.Garibldi[13] وهو مواطن من نيس أن يقود حرباً ضد النمسا وينظم الى الجمهورية التي اقامها ماتزيني واتباعه في روما الا أنه بعد سقوطها في العام 1849م عاد غاريبالدي الى الولايات المتحدة الأمريكية ليعود في العام 1854م الى ايطاليا ويكون أتباعاً "ذوي القمصان الحمر"[14] من أجل تحرير ايطاليا فضلاً عن الاتجاه الذي كان يدعو الى اقامة جمهورية موحدة لايطاليا كان هناك اتجاه آخر يدعو الى وحدة ايطاليا بزعامة البابا فنسنت جيوبرتي V.Giobert[15] ، لتنظيم وتوحيد الدويلات الايطالية وان تكون لها زعامة أوربا . كما اقترح أن تؤسس من الدويلات الايطالية اتحاد كونفدرالي ولكل واحد منها دستورها الخاص ويتزعم البابا الاتحاد .

والى جانب الاتجاهين المذكورين كان هناك اتجاهاً آخر يدعو الى اقامة دولة ايطالية موحدة تتزعمها الأسرة المالكة في مملكة سردينيا ، يسودها نظام ملكي دستوري ، اخذ يلقي تأييداً متزايداً في ايطاليا بسبب وقوف مملكة سردينا الى صف الايطاليين ضد النمسا والموقف الذي أتخذه ملكها فكتور عمانوئيل[16] Victor Emmannel في الحفاظ على الدستور الحر الذي منحه والده شارل البرت لمملكة سردينا واحباطه جميع

المحاولات النمساوية التي كانت تسعى الى الغاء الدستور وحكم المملكة أستبدادياً وبذلك فقد تركت مملكة سردينيا من الناحية الموضوعية اكثر من كل دويلات ايطاليا تأهيلاً لتزعم حركة الوحدة الايطالية سيما وانها قد انجبت الكونت كاميلوبنسودي كافور[17] Cavour الذي بذل جهوداً باتجاه تنمية اقتصاد مملكة سردينيا وتقوية جيشها وعقد اتفاقيات تجارية مع باقي الدول الأخرى وتقليل دور الكنيسة ورجال الدين . وكان لهذه الاصلاحات دور في وضع ملامح لخطة توحيد ايطاليا في ظل ملكية فكتور عمانوئيل مع مراعاته لتلك الجمعيات السرية التي كانت تهدف في مبادئها الى مقاومة السيطرة النمساوية وجمع شمل جهود العناصر المتفرقة في انحاء ايطاليا .

تمكن كافور خلال مؤتمر الصلح الذي عقد في باريس في العام 1856 أن يطرح القضية الايطالية على الدول الكبرى المشاركة فيه ، وان يحصل على تعاطفها باتجاه تحقيق أماني ايطاليا القومية[18] .

بعد هزيمة النمساوين في معركتي ماجنتا Magenta وسلفرنيو Selfrin في 4 و24 حزيران عام 1859 بدعم واسناد من فرنسا التي اعتبرت ذلك رداً لجميل الموقف الذي وقفته مملكة سردينا الى جانبها حين حرب العزم ضد روسيا القيصرية تبع ذلك هيجان ثوري في معظم مقاطعات ايطاليا تأييداً لمملكة سردينيا والنصر الذي حققته على اعداء ايطاليا من النمساويين ، وبسبب ماتكبده جيش نابليون الثالث[19] Napoleon III من خسائر وتفشي الأمراض بين صفوفه أضطر الى عقد اتفاقية صلح في تموز من العام 1895 ، تم بموجبه ضم لومبارديا الى مملكة سردينيا ، وظلت البندقية تحت نفوذ وسيطرة النمساوين .

أن قرار الصلح الذي اتخذه نابليون كان له صدى ووقع كبير على آمال الايطاليين فاستقال كافور من منصبه احتجاجاً ، ولكن مالبث أن عاد ثانية وعلى الرغم من كل ما حصل من احداث فان مملكة سردينيا قد حققت من ذلك مكاسب جمة، تمثلت في تضاعف عدد سكانها ، بعد أن انضمت اليها لومبارديا وضم أراضي أخرى جديدة الى مملكة سردينيا مثل دوقيات تسكانيا وبارما التي طالبت بالانضمام والاتحاد مع سردينيا ، كذلك حصل أن طالبت بعض الولايات البابوية كيولونا ورومانا بالانضمام الى الاتحاد . وقد استغل كافور هذه الاحداث فأرسل باسم الملك فكتور من يمثله لادارة جميع هذه

المناطق وفي الوقت نفسه عقد كافور اتفاقية جديدة مع نابليون الثالث تمكن بموجبها عن الدوقيات الثلاث ورومانا ، شريطة ان تحصل فرنسا على سافوي ونيس[20] .

وقد انعكست آثار الاحداث التي حصلت في شمال ايطاليا على مملكة نابولي التي تقع في الجنوب والتي كان يحكمها الملك المستبد فردنياندا الثاني ferdinand II[21] وفرنسيس الثاني الذي تولى حكمها من بعده وكانت البداية هي الثورة التي نشبت في صقلية ولاقت دعماً كبيراً من غاريبالدي في جنوا وتاييداً سرياً من كافور أزاء ذلك فقد تمكن غاريبالدي من السيطرة على جزيرة صقلية ، ثم نابولي ، ليصعد نجمة وكأنه زعيماً لجمهورية في جنوب ايطاليا ، الأمر الذي أدرك كافور خطورة مافيه ، فاستطاع بذكائه المعروف أن يستولي على أراضي الدولة البابوية عدا روما ومامحيط بها واجري في تشرين الأول من العام 1860 أستفتاء في صقلية ونابولي استطاع بموجبه أن يحصل على تأييد الاغلبية بانظمامها الى مملكة سردينيا[22] ، وتخلى غاريبالدي عن زعامته في سبيل وحدة ايطاليا ثم تبع ذلك انضمام جايتيا والصقليتين ومملكة سردينيا وبوفاة كافور في حزيران 1861م قد حرم من ان يشهد تحقيق تلك الاحلام التي كانت تراوده والايطاليين عن وحدة ايطاليا[23] .

وقد نجحت المملكة الايطالية من ضم البندقية التي كانت ماتزال تحت النفوذ النمساوي وروما التي كانت تحت سيطرة البابا ساعدتها على ذلك حرب (الاسابيع السبعة) التي قامت بين النمسا وبروسيا في العام 1866 ، والتي اشتركت فيها ايطاليا كحليف لبروسيا التي حققت النصر على النمساويين وعقد معاهدة صلح التي وافقت فيها النمسا على تسليم البندقية الى الايطاليين[24] . وكذلك محاولة غاريبالدي للسيطرة على روما التي احبطت من قبل القوات الفرنسية التي أخطر نابليون الثالث فيما بعد الى سحبها بسبب الحرب التي نشبت مع بروسيا حيث بقيت روما بدون حامية ، فاستغل فكتور عمانوئيل ذلك وأرسل على الفور جيشاً الى روما ، استطاع احتلالها في العام 1870 ، اعقبها اجراء استفتاء عام عن رغبة سكانها في الانضمام الى مملكة ايطاليا . وفي العام 1871 أصبحت روما عاصمة للمملكة الايطالية الموحدة[25] .

وكان موقف البابا في باديء الأمر مناهضاً لما تحقق ورفض التنازل من سلطاته الزمنية واستمر موقف الكنيسة ذلك حتى (11شباط) عام 1929 في عهد موسوليني[26]

Massolini حيث تم تسويته بموجب معاهدة لاتران Latran[27] التي كانت من أهم شروطها الاعتراف بدولة الفاتيكان كدولة مستقلة يستطيع البابا من خلالها أن يمارس سلطاته الزمنية .

2- المانيا

يرتبط تاريخ نشوء فكرة الوحدة الألمانية بالحروب النابليونية وتحديداً في نهاية القرن التاسع عشر ، حيث كانت معظم المانيا مجزأة كالاقطاعيات التي كانت سائدة في القرون الوسطى الى عدد كبير من الدويلات والمدن الحرة ، يحكمها رؤساء ، بعضهم نيتمون الى معتقدات دينية ، وآخرون الى الافكار التي رافقت زمن حكمهم ، وبلغ عدد هذه الوحدات السياسية في نهاية القرن الثامن عشر اكثر من360وحدة[28] .

الا ان ما كان يميز دول المانيا في ذلك العصر والتقدم والرقي في مختلف ميادين العلوم والفنون والاداب ، وفيها عدد من الجامعات التي اشتهرت بمكانتها العلمية المرموقة ، وكان علماؤها ومفكروها دائمي الاهتمام بالأمور والاوضاع السياسية التي كانت تحيط بالمانيا ويسترسلون بافكارهم الى الحدود التي ترسم للإنسانية جمعاء صوراً مشرقة عن الاحلام والامنيات البشرية[29] .

ولما قامت الثورة الفرنسية في العام 1789م تعاطت الألمان معها ، ولاسيما في الولايات الحدودية الملاصقة لفرنسا ، وتأثروا بالشعارات والمبادىء التي رفعتها الثورة ونادت بها ، وقوبلت برضا وقبول في المحافل التي كان يقيمها المفكرون السياسيون في معظم انحاء المانيا في بداية القرن التاسع عشر دخل نابليون المانيا محتلاً ملهباً بذلك جذوة وحماس الشعور القومي لدى الألمان[30] ، ولاسيما بعد أن ضم عدداً من الولايات الألمانية الى فرنسا وقضى على القسم الآخر ليصبع عدد الولايات الألمانية(39) ولاية ، بعد ان أنشأ اتحاد الراين في 17تموز 1806 وضم اليه بافاريا ، وبادن وفرتميرك وهسه دارمشتات ، فضلاً عن (12) ولاية أخرى[31]. وقد اراد نابليون من اجرائه ذلك انشاء دولة المانيا قوية توازي قوة النمسا وبروسيا ، الا أن المردود الذي نجم عن ذلك كان عكسياً ضد نابليون ، حيث قام بلم شمل الاجزاء التي كانت مشتتة من بلاد المانيا ، فضلاً عن قيامه بنشر مبادىء الثورة الفرنسية التي ادت الى اضعاف الاقطاع وتأسيس

اتحاد الراين الذي نجم عنه سقوط الامبراطورية الرومانية المقدسة . ومن جهة أخرى فقد أحدثت هزيمة الجيش البروسي أمام القوات الفرنسية في جينا Jena واورشتا Aurestadt في تشرين الأول 1806 ردود فعل قوية لدى الألمان ، مماحثهم على الالتفاف مع بعضهم والعمل في سبيل تخلص المانيا من نير الاحتلال الفرنسي[32] .

وفي العام 1807 تناول جوهان فختهJ.G fichte [33] مصطلح الأمة الألمانية للمرة الأولى في خطاباته الشهيرة ، وانعش آمال الألمان وايقظ في نفوسهم احلام التوحد والقومية ، داعياً الى بناء المانيا جديدة تقوم على أسس اخلاقية راقية .

تلاحقت بعد ذلك ظهور الشخصيات التي تدعو الى توحيد المانيا والتخلص من الاحتلال الفرنسي ومن بين هؤلاء البارون فون شتاين F.K.Stein الذي كان يشغل منصب المستشار الرئيس لملك بروسيا في العام 1807 ، الذي أتخذ العديد من القرارات والاجراءات التي تصب باتجاه الاستغلال والتحرر من الاستعمار والغى الرق في العام 1807م واعاد تنظيم الحكومات البلدية في العام 1808 ، ولاحظ الفرنسيون نشاطه فعزلوه عن منصبه ، لاعتقادهم بأنه يهيء بروسيا لدخول حرب مع فرنسا[34] .

ثم استمرت الاصلاحات بعد فون شتاين في بروسيا بالاتجاه الذي يزيد من حماسة القومية لدى الألمان ، ويعود الفضل في ذلك الى الأمير هاردنبرك[35] K.A.Hardenberg الذي أصبح مستشاراً لبروسيا عام 1810 ، وكذلك الى المرشال بلوخر[36] Blucher .

وفي العام 1815م ازدادت مكانة بروسيا تألقاً بين الدول الألمانية واصبحت محط آمال وانظار الألمان القومية بعد الحقاها الهزيمة بقوات نابليون في معركتي لايبزكLeipzig عام 1813م وواترلو Waterloo عام 1815م[37] .

وفي مؤتمر فينا الذي عقد عام (1814 – 1815م) ناقش المؤتمرون مستقبل المانيا على وفق مبدأ الشرعية ، حيث عارضت النمسا وبروسيا فكرة اعادة الولايات الألمانية التي دفعها نابليون الى الوجود ، وكذلك فكرة أحياء الامبراطورية الرومانية المقدسة . وفوق ذلك فقد دعا البارون فون شتاين الى توحيد ألمانيا تحت سيادة بروسيا الذي لاقى اعتراضاً من امراء المانيا الجنوبية ، زيادة على تردد ملك بروسيا فردريك وليم الثالث (1797 – 1840م) . وتمخض عن المؤتمر قرار يقضي على تشكيل اتحاد

الماني يضم (38) دولة ، بضمنها الأمبراطورية النمساوية ومملكة بروسيا . وقد تم تأسيس مقر لهذا الاتحاد في فرانكفورت . وسمي بـ(الدايت)[38] Diet الذي كان يمثل حكام الدول الألمانية وليس الشعب الألماني وكان يدير الدايت مندوب نمساوي ، لان النمسا كانت هي رئيسة الاتحاد الألماني . وكان رأي الشعب الألماني بان ليس للدايت أن يوافق لألمانيا وصفاً مناسباً على الصعيد الدوري ؛ لان الاتحاد غير قادر على ان يؤسس جيشاً لألمانيا . وكذلك كان التصويت فيه بأغلبية الثلين من الأمور الاعتيادية وبالاجماع في الأمور المهمة[39] .

لم يكن الشعب الألماني في حالة رضا عن قرارات مؤتمر فينا الأمر الذي أدى الى انتشار التذمر بين الشباب الوطنية من طلبة الجامعات الدايت نظموا أنفسهم في اندية عرفت باسم (بروسنشافت)[40] Burschnschaft وكان أول ناد تأسس في جامعة نيا 1815 ، ومنها انتشرت الى الجامعات الأخرى وسط وجنوب ألمانيا ، وكان الشعار الذي ترفعه هذه الأندية يتمثل بالشرف والحرية والوطن .

وفي العام 1817 عقد أعضاء هذه الأندية احتفالاً بمناسبة الذكرى المئوية الثالثة لوقوف المصلح الديني مارتن لوثر Martin Luther [41] ضد البابوية والذكرى السنوية الرابعة لمعركة لايبزك الذي تحول الى مظاهرة سياسية أدت الى أستياء حكام الاتحاد الألماني ، وبخاصة النمسا : مما أدى الى أغلاق هذه النوادي في عدد من الجامعات .

وفي العام 1819 اغتال أحد طلاب الجامعات من منتسبي نادي الجامعة الكاتب الروائي المعروف كوتزبو Kotzobue الذي أشتهر باتجاهاته وميوله لخدمة قيصر روسيا الاسكندر الأول (1801 – 1825) ،مما دعا الى جعل هذه الحادثة مبرراً لمطاردة واعتقال العناصر الوطنية في المانيا.

في أيلول عقد اجتماع سمي فيما بعد باسم (مراسيم كارلوسبادا) Carlsbad تمخض عنه عدد من القررات أهمها :-

1. تقييد الصحافة .
2. وضع الجامعات تحت الرقابة الحكومية المشددة .
3. منع تأسيس الجمعيات او عقد الاجتماعات او اللقاءات السياسية .
4. تشكيل لجنة مركزية في مدينة ماينز لمطاردة الوطنيين والتنكيل بهم .

ترتب على ذلك فتور في نشاط الوطنيين الألمان حتى العام 1848م ، حيث لم يواجه الاتحاد الألماني أية انتفاضات أو ثورات عدا تلك التي حصلت في العام 1830، وكانت من الضعف بحيث ثم القضاء عليها بسهولة[42] .

وفي العام 1840 تولى عرش بروسيا الملك فردريك وليم الرابع (1840 – 1861)م الذي عرف بثقافته وحبة للفنون والأداب وميوله القومية ، حيث كان يذكر باستمرار بالأمة الألمانية فأصدر عنواً تاماً عن المعتقلين السياسيين وخفف من الرقابة على الصحافة ، مما بعث ذلك آمالاً في نفوس القوميين الألمان ولو إلى حين[43] .

ورافقت مرحلة الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر تطورات مهمة كان لها الأثر البالغ في تنامي النزعة القومية لدى الاطارات . ولعل أهمها تلك التي تمثلت في تطور الاقتصاد الألماني وظهور طبقة العمال وازدياد شأن الطبقة الوسطى من تجار وصيارفة واخذوا ينظمون أنفسهم في فريق واتحادات واصبحوا من مؤيدي الدعوة الى توحيد المانيا ، لما لذلك من أثر ايجابي على توحيد نشاطهم الاقتصادي[44].

في آيار من العام 1848 توقف العمل في مجلس الاتحاد الألماني (الداين) بعد أن فاز الاحرار باكثرية الأصوات الذين كانوا ممتلئين حماساً نحو توحيد المانيا .

وفي تشرين الثاني من العام 1848 وبعد أن اخفقت الثورة النمساوية تشجع ملك بروسيا فعزل وزراءه الأحرار ، وحلّ ، البرلمان ، ووضع دستوراً جديداً ركز السلطة بيد الملك ووزرائه على ان يشتمل على أستشارة البرلمان الذي يمثل النبلاء والفئات الثرية من الطبقة الوسطى ساعدت هذه التطورات على أن تتجه أنظار الجمعية الوطنية صوب الملك فردريك وليم الرابع فعرضت عليه تاج الاتحاد الألماني في نيسان من العام 1849 الأأنه ، نص هذا العرض تحسباً للمخاطر المحتملة عن قبوله[45] .

أتجهت النمسا بكل محاولاتها نحو الابقاء على الاتحاد الألماني ، لان ذلك يمكنها بشكل أو بآخر على السيطرة على التحرك الذي يمكن أن يقوم به الوطنيون الألمان باتجاه الوحدة ، في الوقت الذي كانت فيه بروسيا راغبة في التخلص من النفوذ النمساوي ، واتخذت أولى خطواتها وذلك من خلال انشاء الاتحاد الكمركي (الزولفراين)[46111] بين عموم ولايات المانيا عدا النمسا .

وبحلول العام 1851 اكتمل انضمام جميع الدويلات الألمانية الا أن هذا الاتحاد، وبالرغم من كل الجهود التي بذلتها النمسا للأنضمام الى هذا الاتحاد الا أنها باءت بالفشل الأمر الذي أضطره معه النمسا الى الدعوة لعقد مؤتمر في فينا لأقامة الاتحاد الكمركي بين النمسا ودويلات المانية ، الى أن أعلن بروسيا في العام 1852 أنها لن تقبل عضوية أي دولة في الاتحاد[47] .

الا ان دخول الثورة الصناعية الى الولايات الألمانية خلال المدة المحصورة بين الاعوام (1850 – 1860) أدى الى نمو الصناعات الألمانية الكبرى وغدت المانيا ثاني أكبر دولة منتجة للفحم بعد بريطانيا .

وفي العام 1861 توفي الملك فردريك وليم الرابع[48] وخلفه أخوه الذي أمر بحل مجلس النواب وأجراء انتخابات جيدة لم تأت بمجلس يرضخ الى السلطة التنفيذية ، فاستمر النزاع بين وزير الحرب ومجلس النواب عن تقديم تعزيزات لتقوية الجيش. وأزاء هذا الموقف أضطر الملك وليم الأول الى استدعاء بسمارك[49] Bismarck في ايلول 1862 ليشغل منصب رئيس مجلس الوزراء في بروسيا .

وبعد الحرب التي خاضتها بروسيا ضد النمسا في العام 1866 تحققت الوحدة بين الولايات الشمالية لالمانيا وانضمت الدوقيات الثلاثة اشلزفيك وهولشتاين ، لاندنبرج الى الداين الألماني ، فخلال سبعة أسابيع استطاع الجيش البروسي سحق الجيش النمساوي في معركة سادوا ببوهيميا على أثرها قبلت بروسيا بشروط الصلح بينها وبين النمسا بضغط من نابليون الثالث الذي عدّه بسمارك اتفاقاً مرحلياً يمهد الى ضم الولايات الجنوبية التي أصبحت تحت السيطرة الفرنسية التي لايمكن لها ان تتخلى عنها الا بالحرب[50] .

في العام 1868 أطاح انقلاب عسكري مملكة اسبانيا أيزابيلا Isabelle الذي خلفه الأمير ليوبولد أبن مستشار بروسيا السابق كارل انطوان Karl Anton الذي لعب بسمارك دوراً في قبوله هذا المنصب[51] ، وعندما علمت فرنسا بذلك في العام 1870 ، أدى ذلك الى توتر العلاقات بين فرنسا وبروسيا . وفي تموز من العام نفسه اعلنت فرنسا الحرب على بروسيا التي خسرتها في أيلول من العام نفسه في معركة سيدان Sedan واسر نابليون الثالث مع 82 ألف جندي فرنسي . وفي العام 1871 أنتهت

الحرب بمعاهدة فرانكفورت التي عقدت بين بروسيا وحكومة الدفاع الوطني الفرنسي وقد تضمنت المعاهدة على تنازل فرنسا عن الالزاس واللورين الى بروسيا وفرض غرامة على فرنسا دفعتها فرنسا في العام 1873[52] .

أن من أهم النتائج التي تمخضت عنها حرب بروسيا مع فرنسا ، هي توحيد المانيا بعد أن خاض الألمان الشماليون والجنوبيون الحرب ضد فرنسا بحماس وشعور وطني قومي ذابت فيه جميع الخلافات والمنافسات الكائنة بين حكام هذه الدويلات التي توجت بعقد اتفاقية بين بسمارك ممثلاً عن اتحاد الشمال في ألمانيا وبين حكومات الدول الجنوبية الذي تقرر على أثرها تغيير أسم الاتحاد الى الأمبراطورية الألمانية[53] ، ولقب ملك بروسيا بالأمبراطور الألماني . وماترتب على كل ذلك هو ان أصبحت ألمانيا دولة قوية ذات تأثير سياسي على الدول الأوربية وتطور ونما الاقتصاد الألماني بوتائر سريعة أنعكس بالايجاب على الوضع السياسي لألمانيا في قارة أوربا[54] .

3- فرنسا

قبل الخوض في تفاصيل نشوء فكرة الدولة القومية في فرنسا لابد من تسليط الضوء على أهم الأحداث التي عصفت بفرنسا وتحديداً منذ القرن السابع عشر الذي عرف بعصر لويس الرابع عشر[55] LouisXVI (1642 – 1715) حين قرر أن يدير شؤون الحكم في فرنسا من غير وزير بعد وفاة وزيره . كان لويس الرابع عشر ينظر الى الحكم بوصفه حرفة نبيلة وعظيمة لذلك فهو لم يرغب أن يشاركه فيه أحد والذي أثبت فيما بعد بجدارته الفائقة في تصريف شؤون الدولة ليصبح خلال مدة وجيزة ملكاً عظيم الصلاحيات مطلق السلطات ، حكم بقوة وحزم لم يسبقه في ذلك أي ملك من ملوك فرنسا[56] .

وبسب ميل لويس الرابع عشر الى حكم بلاده حكماً مطلقاً فقد استعان في ذلك بعدد من الوزراء والمعاونين لمساعدته في إدارة شؤون البلاد ، واختارهم من الطبقة الوسطى باعتبارهم أكثر ولاءاً له من باقي طبقات الشعب مقابل ذلك أبعد النبلاء عن المناصب الكبيرة . وكان من بين هؤلاء الوزير المسؤول على شؤون المال والاقتصاد الذي لعب دوراً في اصلاح الوضع الداخلي لفرنسا ، من خلال ما قام به من اصلاحات واعمال جليلة أدت الى تطوير الزراعة والصناعة وتنشيط التجارة ، وبالتالي كان يريد أن تكون

لفرنسا امبراطورية لما وراء البحار أما في جانب السياسة فقد كان الملك لويس الرابع عشر وحده يرسم أهداف السياسة الخارجية لفرنسا ويتحكم من حلالها بمقدرات القارة الأوربية التي كان يهدف من خلالها تحقيق المجد والعظمة لشخصه وعرشه ولفرنسا الأمر الذي دعاه الى تأسيس جيش قوي لقناعته ان الحرب هي الوسيلة المفضلة لتحقيق طموحاته التوسعية[57] .

وفي آب من العام 1715 توفي الملك لويس الرابع عشر تاركاً العرش لحفيده لويس الخامس عشر لينتهي بموته أعظم عهد شهدته فرنسا من أحداث مليئة بالامجاد والمآسي والدمار أيضاً[58] . لتشهد فرنسا في عهده دخول فرنسا حروباً ضد بريطانيا رافقها عجز مالي مما ادى ذلك الى بروز ملامح الثورة .

هذه الأحداث مجتمعة هي التي هيأت الأرضية الخصبة لنمو بذرة القومية فقد هيأ روسو التربة لنمو القومية من خلال تأكيده على السيادة الشعبية وعلى تعاون الجميع في صياغة الارادة القومية . وفي العام 1789 اندلعت الثورة الفرنسية لتفتح عهداً جديداً في فرنسا وبداية حرب استمرت ربع قرن ، تمخض عنها افكار ونظريات عن دور الدولة والحكومة في ادارة شؤون البلاد[59] .

ومن جانب آخر ، كانت قومية الثورة الفرنسية تعبيراً ظافراً عن الأيمان العقلاني بالإنسانية العامة وبتقديم الحرية واعتبر شعار "حرية ، مساواة ،أخاء" الشهير واعلان حقوق الإنسان والمواطن قانوناً ليس بالنسبة للشعب الفرنسي فحسب بل لكل الشعوب[60] . ففي المادة الأولى تضمن على أن "الناس يولدون ويظلون أحراراً ومتساووين في الحقوق التي تمثل الحرية والملكية والأمن ومقاومة الظلم والتعسف وحرية الاعتقاد والدين" .

وفي أيلول العام 1789 حصل أنقسام بين الثوار حول منح الملك سلطة قوية فعالة من حق الاعتراض (الفيتو) وان تكون هناك سلطة تشريعية مؤلفة من هيئتين ، ورأي آخر يتجه نحو منح الملك حق الاعتراض .

وتشكيل سلطة تشريعية مؤلفة من مجلس واحد ، وقد تحقق الانتصار الرأي الثاني النصر وتأسيس الجمعية الوطنية في السنتين 1789 – 1791 بتنفيذ عدد من الاصلاحات أهمها :-

1- تهيئة دستور مكتوب

2- القضاء على نظام العهد القديم جملة وتفصيلاً من وزارات الدولة والضرائب ، والملكية ، والوظائف ، والقاب الشرف ، والبرلمان ، ومئات النظم القانونية الإقليمية ، والبلديات في المدن[61] .

ومن المسائل التي قررت اللجنة التشريعية مناقشتها وحسمها ، هي مصير الملك لويس السادس عشر حيث تم في 16 تشرين الأول من العام 1792 تحديد مصير الملك ومن ثم أصدر حكم الاعدام بحقه في كانون الثاني من العام 1793 في ساحة الثورة بباريس .

كان من بين الضباط الذين قادوا الهجوم الناجح على طولون في كانون الثاني 1793 نابليون بونابرت ، بعد أن سقطت ليون بأيدي القوات الفرنسية واستمرت عمليات التطهير في كل انحاء البلاد لتخضع بعد ذلك كل اقاليم البلاد لسيطرة المؤتمر الوطني[62] .

وفي العام 1795 انتعش الحس الجمهوري ضد الملكين حيث تم أجراء انتخابات فاز فيها الجمهوريون المعتدلون وبعد أنفضاض المؤتمر الوطني بدأت فرنسا صفحة جديدة من الحكم واستقرار حكومة الادارة وبروز نابليون كقائد عسكري ناجح يحقق الانتصارات المستمرة على ايطاليا والنمسا وكان له دور في حسم الخلافات السياسية التي كانت تحصل بين اعضاء حكومة الادارة والبرلمان[63] حيث ارسل مرة أحد ضباطه على رأس قوة عسكرية قامت بحركة انقلابية ناجحة في العام 1797 ليصبح أعوان حكومة الادارة هم الأغلبية في البرلمان . وبعد احتلال فرنسا مصر في عام 1798 عاد بعدها في 1799 وكانت الظروف السياسية مهيأة له لأستلام زمام السلطة من دون اللجوء الى العنف ومع ذلك فقد واجه معارضين احضروه الى استعمال العنف وقيامه بانقلاب انهى به الثورة الفرنسية[64] . والسعي لبناء امبراطورية . فقد نشرت جيوش نابليون القومية في كافة انحاء أوربا وحتى في الشرق الأدنى ، وعبر المحيط الاطلسي أثارت سكان أمريكيا اللاتينية ولكن استبداد نابليون حول قومية الاوربيين ضد فرنسا .

أن الخلط بين فكرة الثورة ونابليون أدى في اوربا الى الخلط بين نابليون والحركة القومية على الرغم من ان نابليون قد اصطدم بالانتفاضات القومية وقاتلها. الا ان رواد هذا التوجه بدؤوا يشددون ويذكرون باقوال نابليون منها الايطاليين والألمان والأسبان "لان بودي ان اجعل من هذه الشعوب شعباً واحداً بل أنه واحد"[65].

وبعد موت نابليون في العام 1840 ونقل رفاته الى فرنسا وبني له ضريح ضخم في كنيسة سانت لويس في باريس . لابد من الاشارة هنا الى أنه كان لنابليون والثورة الفرنسية الأثر البالغ في نمو الثقافة القومية بين شعوب اوربا لما قام به نابليون من اصلاحات وفقاً ومنها لافكار الاستبداد والمطلق والامتيازات الطبقية لتصبح القومية والحرية المطلب الرئيسي لهذه الشعوب[66] .

3- انجلترا

لقد كان لعصر النهضة والانبعاث دور بارز في تقدم العلوم والفنون وتطور الافكار وتحديثها من خلال القضاء على القديم منها وبناء نظريات حديثة تقوم على فلسفة جديدة استوحت مضامينها واستنارت بفضل التقدم والتطور العلمي والحضاري الذي انتشر في مختلف المجالات ، وكانت دول اروبا أكثر الدول في العالم تأثراً وتأثيراً بهذا العصر .

وبسبب حرب المئة عام[67] وحرب الوردتين[68] فان نصيب انجلترا من نتاجات عصر النهضة كان قليلاً وبطيئاً في مختلف المجالات الفكرية والثقافية والفنية والعلمية حيث أتت اولى رياح الحركة الإنسانية[69] Age of Rezen الى بريطانيا على يد كوليت الذي كان طالباً في أحدى الجامعات البريطانية ، ويحضر محاضرات خاصة بعلم اللاهوت . وقد تركزت الدراسات الإنسانية في البداية في جامعة أكسفورد لتنتشر بعد ذلك الى جامعة كمبردج حيث أصبح يدرس فيها القانون الروماني وعلم الطبيعة واللغة اليونانية والعبرانية في منتصف القرن السادس عشر .

واذا كان هناك ما يميز عصر النهضة في بريطانيا ، فهو لاريب الدراسات والافكار التي ولدت ونمت في القرن السادس عشر في مجال اللاهوت والدراسات الدينية ففي واقع الحال كانت منطلقات الاصلاح الديني[70] Reformation في انجلترا لم تكن عقائدية وانما هي سياسة وتلك المصالح الخاصة التي دعت الى ان يفصل الانجليز

انفصالهم عن الكنيسة في روما ، وتأسيس كنيسة خاصة بهم ، هي كنيسة الانكليكانية اذ كان للملك هنري الثامن[71] دوراً بارزاً في تحقيق ذلك الانفصال عن روما ، بعد ما اراد أن يطلق زوجته الأميرة الأسبانية كاثرين والزواج من آن بولين وهي سيدة من البلاط الانجليزي ، وكان قرار الملك ذلك مبرراً يتجلى بعدم قدرة زوجته على انجاب ولي العهد الا أن الكنيسة لم توافقه على ذلك .

ولما لم يكن هنري الثامن ممن يقبلون أن ترفض طلباتهم فقد أستدعى أسقف كنتربوري واجبره على ان يتولى شعائر تطليق زوجته وقيامه بمراسيم زواجه من آن بولين ، ويكون بذلك قد أعلن الحرب على الكنيسة وكان لابد له من أن يتخلص نهائياً من سلطة الكنيسة وذلك بجعل تلك الحرب ذات طابع وطني وتحت رئاسة العرش الانجليزي ومماساعد هنري الثامن على تنفيذ قراره ذلك عاملان مهمان هما[72] .

الأول : كان قسم كبير من أموال وأملاك بريطانيا تذهب الى الكنيسة البابوية سنوياً ، وبالتالي فان تحرير الكنيسة الانجليزية من الكنيسة البابوية ، يعني توفير كل تلك المبالغ لمصلحة انجلترا .

الثاني : بسبب كثرة تدخلات البابا في شؤون انجلترا وأرهاق الشعب بالضرائب فقد كانت مشاعر الشعب الانجليزي ليست متعلقة كثيراً بالبابوية فضلاً عن فقدان ثقتهم بالكنيسة الانجليزية لانتشار الجهل والاستغلال والانحطاط الفكري والخلقي بين رجال الاديرة والاسقفيات[73] .

كان هنري الثامن مهتماً كثيراً بالأمور الدينية ومتأثراً بفلسفة توما الاكويني وتعمق فيها الى الدرجة التي دفعته الى أن ينجز بحثاً نشر في العام 1521 بعنوان "دفاعاً عن الاسرار المقدسة" رد منه على تعاليم مارتن لوثر وان استمرار اهتمامه بأمور الدين وتعمقه جعله أن يكون قوي الحجة وكانت كل آرائه وتفسيراته الدينية تتمشى مع وجهة نظر البابوية ولاسيما في مجال مسائل القداس وزواج رجال الدين ، ولكن الى حين حصول ذلك النزاع بسبب زواجه فقد دعا في العام 1529مجلسا اللوردات والعموم للاجتماع في دورة استمرت سبع سنوات استطاع من خلالها أن يعزز انفصال الكنيسة الانجليزية عن روما ، وبالرغم من ذلك فان هنري الثامن لم يكن راغباً في اصلاح

المذهب البروتستاني محل المذهب الكاثوليكي ولكنه كان يرغب فقط في أن تكون السيادة الدينية له في أنجلترا .

وبحلول العام 1534 وافق مجلسا اللوردات والعموم على قانون السيادة الذي أصبح بموجبه الملك هنري الثامن الرئيس الأعلى للكنيسة الانجليزية ويعترف كل فرد بالرئاسة الدينية وبهذا يكون هنري الثامن قد تخلص من سيطرة الكنيسة في روما وتوحيد المشاعر الدينية في انجلترا فوضع جملة من الاصلاحات الدينية منها وضع أول مجموعة من الطقوس لكنيسة انجلترا عرفت باسم "المواد التي وضعها صاحب الجلالة الملك لاقرار السلام المسيحي" الذي تراجع عنها في العام 1539 ، عندما سن ما اسماه بالمواد الستة[74] .

وفي العام 1545 أمر هنري الثامن بمراجعة كتب الصلاة ، واقر تراتيل الصلاة العامة ، وكذلك وضع الانجيل الذي ترجمه وليم تنديل في الكنائس الانجليزية.

وبعد وفاة هنري الثامن 1547 ومجيء أبنه أدوارد السادس البالغ من العمر عشر سنوات ، الذي توفي في العام 1553 لتتولى الملكة ماري أمور العرش والتي كانت تدين بالمذهب الكاثوليكي ، وبتولى الملكة اليزابيث العرش في العام 1558 والتي كان لها الأثر في تحول الانجليز تدريجياً الى المذهب البروتستانتي ومن ثم اعاد البرلمان قانون السيادة ، وبذلك رجعت الكنيسة الانجليزية الى الوضع الذي كانت عليه أيام هنري الثامن وعلى أثر هذه الاوضاع صدر في العام 1563 قانون جديد يتألف من 39 مادة ينظم شؤون العقائدية وضعت مواده بروح البروتستانية يغلب عليها الطابع الكلفيني مع حفاظها على الروح الكاثوليكية التي لاقت معارضة شديدة من الكاثوليك الذين عرفوا باسم المطهريين واما الذين رفضوها من البروتستانت فقد سموا بالانفصالتين .

ومنذ العام 1603 ابتدأ جمس الأول[75] James I حكمة بدون البرلمان لقناعته بنظرية الحق الآلهي الذي وقف الشعب ضد افكاره ، وكذلك مجلس العموم ، وكان هذا يتناقض مع ماتنامى شعور قومي بوحدة المذهب الذي وصل في عهد هنري الثامن وباعتلاء تشارلس الأول[76] Charles I الذي سار على سياسة أبيه فضلاً عن سلسلة الحملات العسكرية الفاشلة ضد اسبانيا وفرنسا عانت خزينة انكلترا من عجز مالي وقد حكم تشارلس الأول حكماً مطلقاً أحدى عشرة كان أهم نتائجها أنه بذر بذرة لثورة عند

الشعب الانجليزي لتصبح نواة لثورة كبرى فقد أجتمع النبلاء وصغار الملاكين في العام 1637 أعلنوا فيه تمسكهم بمبادئهم الكلفينية وباتت الحرب وشيكة بين الملك والاسكتلنديين. تكلل ذلك باقدام الملك على حل البرلمان واجراء انتخابات جديدة والمسمى (بالبرلمان الطويل) لأنه لم يجرؤ أحد على جعله مدة أحدى وعشرين عاماً سوى الملك تشارلس الأول الذي تلقى من المجلس أحتجاجاً سمي بالاحتجاج الاعظم ، فضحوا فيه مساويء الملك مما أفقد ذلك ثقة الشعب به .

وفي العام 1645 انتصر اوليفر كرومويل[77] في معركة تأسيبي لتصبح أكثر أراضي انكلترا تحت سيادة مجلس العموم ففر الملك ملحقاً الى الاسكتلنديين الذين سلموه الى اعدائه ومن ثم انتهت حياته بالاعدام في العام 1649م وفي العام 1652 أصدر مجلس العموم اعلاناً بقيام الاتحاديين اسكتلنده وايرلندا وانجلترا ، ليؤكد بهذا كرومويل وحدة الجزر البريطانية ولاسيما بعد ان استطاع كرومويل أن ينتصر على الملك شارل الثاني وهرب الأخير الى أوربا[78] .

وبموت كرومويل في عام 1660 انتخب مجلس العموم أبنه ريتشارد رئيساً للدولة الذي لم يتمكن من مليء الفراغ الذي تركه والده فحدثت الانقسامات بين فئتين، فئة تريد الجمهورية واخرى تريد اعادة الملكية ، ليبرز أحد الضباط المحافظين ويكتب الى شارل الثاني في منفاه بهولندا طالباً منه العون لاستلام عرشه لتنتهي بذلك عهد الجمهورية ، وعودة الملكية من جديد ، وبموت شارل الثاني ومجيء شقيقه جيمس الثاني للعرش أدى الى انقسام مجلس العموم الى قسمين ومن ثم أصداره لائحة التسامح الديني مع الكاثوليكي التي كانت تشكل تهديداً للكنيسة الانكليكانية وكانت نتيجة هذه الاحداث فرار الملك جيمس الثاني وقد أطلق الانجليز على هذه الحركة بالثورة الجليلة وعلى أثرها أصدر مجلس العموم قانون التسوية لعام 1701 الذي نص على عدم جواز العرش الملكي من قبل كاثوليكي وصدور قانون الوحدة لعام 1707 بين كل من اسكتلندا وانجلترا وبلاد الغال (ويلز) دولة موحدة سميت بالمملكة المتحدة وعرفت فيما بعد باسم بريطانيا[79] .

ولقد كان للثورة الجليلة الأثر البالغ في إرساء دعائم دولة بريطانيا منذ القرن السابع عشر وحتى يومنا هذا لما تبلور عنها من اعترافات دستورية وسياسية بقيت راسخة على اختلاف جهود الملوك وهي :-

1. نشوء نظام الحربين الذي لم يسبق له أن كان موجوداً .
2. ظهور مجلس الوزراء .
3. أصبح النائب في مجلس العموم يمثل دائرة انتخابية .
4. تحددت نوعية وسلطات مجلس اللوردات والعموم فاصبح مجلس اللوردات يمثل الارستقراطيين ، والعموم يمثل سلطة الشعب .
5. تنامت الروح الثورية التي تتقاطع مع امتيازات الطبقات ، فانتشرت حرية الرأي والمناداة بالمساواة بين الطبقات وهي حق كل فرد في التعبير عن رأيه[80] .

وبعد سلسلة الاحداث التي سبق التحدث عنها نستطيع أن نحدد أن أول مظاهر القومية قد ظهرت خلال القرن السابع عشر والتي تمثلت في الثورة البيورتيانية[81] فقد شهدت انجلترا في ذلك القرن ثورة في الروح العلمية ، وفي المشاريع التجارية وفي الفكر والنشاط السياسي وصولاً الى نقطة التحول الكبرى التي بدأت في حركة الاصلاح الديني المتمثلة بالعقائد الكالفينية مما اعطى ذلك تأثيراً وكصيغة للقومية الجديدة وذلك من خلال توحيد الشعب الانجليزي وفق مذهب ديني واحد ، وبرزت هذه الافكار في كتابات جون ملتون John Milton التي ظهرت في افكاره الشهيرة فكرة الحرية وانتشرت في بريطانيا وهي أفكار كان يعبر عنها بانها صالحة لكل العصور باعتبارها أفكاراً معتدلة جداً لنشر الحرية في كل بقاع الأرض ولقد عبر عن ذلك بقوله "وبعد أن احطت بالجماهير المهنئة ، اتخيل نفسي الآن بانني أشاهد شعوب الأرض ، وهي تستعيد تلك الحرية التي كانت قد فقدتها في الماضي ، وان شعب هذه الأرض ينثر بركات الحضارة والحرية ما بين المدن والممالك والأمم"[82] .

وعلى هذا الأساس كانت القومية الانجليزية أقرب الى قالبها الديني من قربها الى القومية المتأخرة التي ظهرت بعد تقدمت العلمانية بصورة أكثر .

وتوافق ظهور القومية الانكليزية مع ظهور الطبقة البرجوازية (الوسطى في انكلترا لوك السياسية وبتلك الصورة أثرت في القوميتين الأمريكية والفرنسية في القرن اللاحق وتوافق

ظهور القومية الانجليزية مع ظهور الطبقة البرجوازية (الوسطى) في انكلترا ولقد وجدت هذه القومية التعبير النهائي لها في فلسفة جون لوك السياسية وبتلك الصورة أثرت في القوميتين الأمريكية والفرنسية في القرؤن اللاحق[83] .

الخلاصة

أن ظهور لقومية والدول القومية هو ظاهرة أوربية حديثة . أما الجماعات السياسية في العصور القديمة فلم يطوروا دولة ذات مشاعر مشتركة متحدة مع القومية فقد كانت الدولة القومية في اليونان القديمة جماعة سياسية تطالب مواطنيها بالولاء الملطق والحذر الدائم من دول المدن الأخرى ، ويمكن أن تعزى المشاعر القومية مابين اليونانيين في ذلك العصر الى التمييز الذي وضعوه بين انفسهم وبين البرابرة أكثر من كونه مشاعر ولاء تجاه دولة قومية غير دولتهم القومية أما الامبراطورية الرومانية ، المستندة إلى قوة المحاربين الرومان وعلى القانون الروماني ، فقد كانت تضم تقريباً كل شعوب عصرها ، بالرغم من عدم وجود شعب روماني ومع أنهيار الامبراطورية والهجمات البربرية أختفى كل ذلك ماعدا الروابط الشخصية وفي العصر الاقطاعي كان الرابط الأكثر أهمية شخصياً ، بين السيد والمقطع .

أما في عصر النهضة فقد شكلت العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية معاً مادة القومية في أوربا . فقد قوضت الصحافة المطبوعة كل نوع من انواع الاحتكار على التعليم . وادت الاصلاحات الدينية البروتستانية في آخر المطاف الى قيام الكنائس القومية وفي بعض البلدان تحالف الملوك مع المدن ضد الاقطاعيين وأسسوا مراكز سيادة . وبعد تطور التجارة طالبت الطبقات التجارية المتوسطة في المدن ، المتحررة من التقاليد والولاءات ، بحماية السلطة المركزية القوية وطالبت بفوائد اقتصادية ذات وحدات اقليمية أكبر . وفي القرن الثاني عشر فقد أدى استبدال أوربا للتهذيب الديني بالتعاليم العلمانية الى قيام أنظمة تعليمية قومية ، وبما أن التعليم أدى الى قيام صحوة ثقافية وسياسية ، فقد أكتسبت صفوف الشعب أهتماماً من الملوك وقد شدد الشعراء والكتاب وعلماء الدين على التقاليد الثقافية لشعوبهم وطوروا الاداب القومية التي تؤكد على المساهمات القومية فلم يعد الملك بعد ذلك هو الدولة . فقد أصبحت الدول ملكاً لعامة الشعب ، ولم تعد الأرض ملكاً للسيد الاقطاعي ، بل لاولئك الذين يعيشون عليها . واصبح البلد وطناً ، واخذت الأمة والدولة المعنى نفسه .

المصادروالهوامش

1. Hayes , Carlton , Political and cultural History of Modern Europe , New York 1936 , pp 96-135 .
2. Turner , op .cit.p.273 .
3. تأثر الايطاليون بشعارات ومباديء الثورة الفرنسية ، ومن بينها مبدأ القومية وكان لنابليون بونابرت دور مهم في ذلك فقد قام بغزو ايطاليا سنة 1796 وقد استمر الحكم الفرنسي في ايطاليا حتى هزيمة نابليون امام التحالف الأوربي سنة 1814م .

- د. خليل علي مراد وآخرون ، دراسات في التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر ، بغداد ، 1988 ، ص178 .

4. د. نوار الدين حاطوم ، حركة القومية الايطالية ، معهد البحوث والدراسات العربية 1971 ، ص7–9 .
5. كان نابليون ينتمي الى عائلة ايطالية معروفة ، وقد ولد في جزيرة كورسيكا في آب 1769 بعد أن اشترت فرنسا تلك الجزيرة من جنوا مباشرة ، د. خليل علي مراد وآخرون ، دراسات في التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر ، بغداد 1988 ، ص178 .
6. جمعية الفحامين الكاربوناري Carbonari : وهي جمعية سرية تشكلت في بداية الأمر في نابلي على أثر مقررات مؤتمر فينا وكانت تدعو الى استخدام القوة ضد تسلط النمسا على ايطاليا وقد حلت سنة 1820 .

Harryw.Rudman , Italian Nationalism , New York 1940 , p.p.

7. McClelland .op.cit .pp. 9-278 .
8. الامير مترنيخ Metternich : (1773 – 1858) ينتمي الى اسرة نبيلة من وادي الراين ولعب دوراً في مؤتمر فينا أشتهر بعدائه للنزعات القومية الحرة ولقب (بشيخ الرجعية) .

I bid .p.p.18-272 .

9. Rodman , op .cit. , p.14 .
10. شارل العاشر Cherles ولد في فرساي في العام (1757م) ملك فرنسا (1824 – 1830)في عهده جهزت الحملة على الجزائر التي انتهت باحتلالها.

بطرس مرقوش وآخرون ، المنجد في الاعلام ، دار المشرق ، ط13 ، بيروت 1984 ، ص381 .

11. جمعية ايطاليا الفتاة Young Italy : برزت هذه الجمعية بعد ضمور دور جمعية الكاربوناري التي تأسست سنة 1831 نتيجة لإرهاب مترنيخ وحكام ايطاليا المستبدين ويرجع تأسيسهاالى جسي ماتزيني G.Mazzin .

Rudman , op .cit . , p.11 .

12. جسي ماتزيني G.Mazzin : وهو ابن استاذ جامعي ولد في جنوا ، أنضم الى جمعية الفحامين (الكاربوناري) وسجن ثم نفي ، لاشتراكه في أحدى الثورات وفي سنة 1831 أسس جمعية ايطاليا الفتاة وكرس نفسه لتحرير ايطاليا وتوحيدها.

Ibid p.p 33-51 .

13. جوزيف غاريبا لدي J.Garibaldi (1807 – 1882م) ولد في مدينة نيس بايطاليا ويعتبر من أشهر تلاميذ جسي ماتزنيي تأثر بجمعية ايطاليا الفتاة وبمبادىء الجمعية ، شارك في تمرد أحدى السفن البحرية فحكم عليه بالاعدام الا أنه هرب الى أمريكا الجنوبية وعاد الى ايطاليا سنة 1854م .

George Macaulay Trevelyan , Garibaldi's Defence of the Roman Republic (1848 – 9) Toronto 1949 , p.p122.300 .

14. ذوي القمصان الحمر : وهم جيش من المتطوعين جمعهم غاريبالدي في جنوا وابحر بهم في آيار 1860 لدعم ثوار صقلية .

Trevelyan , op.cit . p.16 .

15. فنسنت جيوبرتي V.Gioberti: وهو قسيس من بيدمونت عاش سنوات طويلة من حياته في المنفى ، نشر سنة 1843 كتاباً بعنوان (تفوق الايطاليين الخلقي والمدني) .

F.H.Erass , ed , the Dictionary of the Christian church , London , rep . 1963 , p. . 528 .

16. فكتور عمانوئيل Victor Emmanuel ملك سردينيا 1849 ثم ايطاليا 1861 انشأ الوحدة الايطالية بمساعدة وزيرة كافور .

بطرس مرقوش وآخرون ، المصدر السابق ، ص529 .

17. كاميليو بنسودي كافور Camillo Benso di Carour : ولد سنة 1810 في بيدمونت من اسرة نبيلة عمل ضابطاً في جيش سردينيا ثم اقصي عنه بسب توجهاته القومية ولقد عرف بكراهيته للحكم المطلق والسلطة الكنسية ، ترأس تحرير صحيفة البعث Risorgimento التي كانت تصدر في تورين ، سنة 1850 عين وزيراً للزراعة ثم رئيساً للوزراء ثم وزيراً للخارجية سنة1852، توفي سنة 1861م .

Treveleyan , op. cit. , p.p. 8 – 48 .

18. خليل علي مراد وآخرون ، المصدر السابق ، ص192 .
19. لويس الثالث او (لويس بونابرت) وهو الابن الاكبر للويس بونابرت ولد في باريس عام 1808 واشتهر باسم (نابليون الثالث) بعد أن اصبح رئيس للجمهورية الفرنسية . بعد قيام الثورة في باريس عام 1848 عاد الى فرنسا وانتخب رئيساً للجمهورية ثم أعلن نفسه امبراطوراً عام 1852 الى حين هزيمة فرنسا أمام بروسيا في حرب (1870 – 1871) وقد توفي في العام 1873 .

Rudman , op.cit.p.p82 – 193 .

20. Trevelyan , op.cit. , p.193 .
21. Trevelyan , op. cit.pp. 10 – 330 .
22. Ibid . p.330 .
23. Ibid . p.332 .
24. Ibid . p.336 .
25. Trevelyan , op.cit. pp311 – 313 .
26. موسلين Mussolini ولد بنيتوموسولين في عام 1883 في قرية دوفيا الواقعة في أقليم رومانياRomagne في شمال ايطاليا كان أبوه حداداً وذا اهتمامات سياسية أما أمه فكانت معلمة دخل جامعة لوزان بعدها عاد الى ايطاليا وعمل محرراً للصحف في تورنتو ثم أسس صحيفة (الصراع الطبقي) وفي عام 1912 عين مسؤلاً لتحرير صحيفة افانتي Avanti تنطق بلسان الحزب الاشتراكي وابرز ما يميزه هو تزعمه الحزب الفاشي الذي ارتبط باسمه وارتبطت الفاشية به .

خليل علي مراد وآخرون ، المصدر السابق ، ص282 .

27. معاهدة لاتران Latran : وهي معاهدة أجريت بين الكرسي الرسولي (البابا) والحكومة الايطالية في عام 1929 أستعاد البابا بموجبها حقوقه الزمنية داخل دولة الفاتيكان.

بطرس مرقوش ، المصدر السابق ص ص 66 –39 .

28. Encyclopedia Britannica , vol .106 U.S.A 197 , P.62.
29. أبو خلدون ساطع الحصري ، محاضرات في نشوء الفكرة القومية ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، 1985 ، ص28 .
30. روبرت ر. بالمر ، تاريخ العالم الحديث ، ترجمة حسن علي الذنون ، ج2 ، بغداد 1964 ، ص ص 293 – 295.
31. خليل علي مراد وآخرون ، المصدر السابق ، ص195 .

32. روبرت ر . بالمر ، المصدر السابق ، ص ص 293 – 395 .

33. جوهان فختة J.G fichte (1762 – 1814) استاذ الفلسفة في جامعة برلين ، ومن أشهر مؤلفاته كتابه الشهير ((خطب الى الشعب الألماني)) الصادر سنة 1808 الذي أثار فيه المشاعر القومية الألمانية ضد هيمنة نابليون .

Encyclopedia OF Social Scienes , op . cit . , p.311 .

34. خليل علي مراد وآخرون ، المصدر السابق ، ص196 .

35. الامير هاردنبرك K.A.Hardenberg : (1750 – 1822) أصبح مستشاراً لبروسيا عام 1810 . اعاد تنظيم الجيش البروسي تحت أشراف قادة عسكريين بارزين .

المصدر نفسه ، ص197 .

36. بلوخر Blucher : (1742 – 1818) قائد عسكري لعب دوراً في دحر قوات نابليون في معركتي لايبزك ومعركة واترلو .

37. Abgang , op.cit . , 128 – 131 .

38. الدايت Diet أو البوند شتاغ Bundestag : وهي هيئة تشريعية مقرة في فرانكفورت لمناقشة المشاكل التي تخص الاتحاد الألماني ، وكان الدايت تحت رئاسة مندوب نمساوي على اعتبار أن النمسا كانت رئيسة الاتحاد حسب مقررات مؤتمر فينا .

خليل علي مراد وآخرون ، المصدر السابق ، ص197 .

39. وليام لانجر ، موسوعة تاريخ العالم ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، القاهرة 1963 ، ص1238 .

40. بروسنشافت Burschenchat : وهي عبارة عن مجموعة من الأندية تأسست في المانيا احتجاجاً على مقررات مؤتمر فينا 1815 .

Diio Pflanze , Bismarck and the Development of Germany the Period of unification , 1815-1871 , U.S.A 1962 , p.p.27 -28 .

41. مارتن لوثر Martin Luther (1483 – 1546) وهو من عائلة غنية من مدينةأيسليبن بمقاطعة بسكوينا أصبح قساً عام 1905 وأصبح أستاذاً للاهوت في جامعة ويتبورغ بسكسكونيا ةكانت أراؤه تهدف الى التخلص من شرور ومفاسد الكنيسة الكاثوليكية والبيروقراطية التي تكاملت خلال العصور الوسطى .

Max wlber , protestant Ethics and the splrit of capitalism , New York 1968 , p.221 .

42. خليل علي مراد وآخرون ، المصدر السابق ، ص199 .

43. Pflanze , op .cit .p11-12 .

44. Ibid . p.15 .
45. Pflanze , op . cit. , p.166 .
46. Ibid . p. 142 .
47. أبو خلدون ساطع الحصري ، المصدر السابق ، ص ص 40 – 41 .
48. أصيب فردريك وليم الرابع بالجنون سنة 1858 ومات سنة 1861 . وقد أصبح وليم الأول وصياً على العرش من (1858 – 1861) ثم ملكاً من (1861 – 1888)م .
49. بسمارك : ولد عام 1815 وعمل في العدلية وفي العام 1849 كان يؤمن بضرورة بناء جيش قوي لبروسيا يستخدم لتحقيق الوحدة القومية .

محمد مظفر الأدهمي،تاريخ أوربا في القرن التاسع عشر،بغداد 1985،ص212 .

50. Kohn , op . cit. , p.p.86-681 .
51. Ibid , p.p. 333-390 .
52. Hans , op.cit . , p.330 .
53. جرت الاحتفالات باقامة الأمبراطورية الألمانية في 18كانون الثاني 1871 في قاعة (المرايا) بقصر فرساي في ضواحي باريس حيث قرأ بسمارك المرسوم الامبراطوري واعلن وليم الأول ملك بروسيا أمبراطوراً لألمانيا .

Pflanze , op.cit. , p.p. 62 – 94 .

54. خليل علي مراد وآخرون ، المصدر السابق ، ص212 .
55. A.R.Spofford , the Library Historic Charactars and famon events of all nations and ages , vol II , Philadelphia . p.300 .
56. I bid .p.305 .
57. I bid .p.309 .
58. حسن علي الذنون ، مصدر سابق ، ص ص129–131 .
59. the American peoples Encyclopedia (vol.14) , New YORK 1962 , P.34 .
60. I bid p.37 .
61. محمد مظفر الأدهمي ، المصدر السابق ، ص ص 142 – 199 .
62. Kohn , op . cit.p.318 .
63. I bid . p.p. 545-513 .
64. محمد مظفر الأدهمي ، المصدر السابق ، ص ص166 – 174 .
65. the American peoples Encyclopedia , op . cit . , p.35 .
66. Encyclopedia Britannica , op.cit p.60 – 61 .

67. حرب المائة عام : وتشير الى الحرب التي دارت رحاها في فرنسا بينها وبين انجلترا من 1338 – 1435 .

سدني دارك ، المصدر السابق ، ص30 .

68.

المصدر نفسه ، ص31 .

69. في العادة يعتبر القرن 17 – 18 اذ يشار اليهما أنهما القرنين الذين احتضنا الاستنارة وفيها ساهم المفكرون مساهمة جدية للترويج للأفكار الجدية سواء عبادة الخالق او مفهوم الحق الطبيعي .

سعد زغلول ، المصدر السابق ، ص ص 132 – 54 .

70. الاصلاح الديني Reformation : وهي أقوى حركة دينية اصلاحية واجهتها أوربا في القرن السادس عشر هي البروتستانتية التي قادها كل من مارتن لوثر الألماني وجون كالفن الفرنسي

Weber , op . cit . p221 .

71. هنري الثامن ملك انجلترا (1509 – 1547) ، في عهده اشتهرت حركة النهضة العلمية والاصلاح الديني ، وقام النزاع بينه وبين البابا بسبب مسألة زواجه من أحدى فتيات قصره وهو الذي قيل عنه انه انشأ مذهباً جديداً ليحصل على زوجه جديدة وقد اضطهد كل من خالف هذا المذهب من الكاثوليك والبروتستانت .

سدني دارك ، المصدر السابق ، ص57 .

72. Hkohn , op . cit. , p.p. 175 – 205 .

73. لقد كان يحيط بهنري الثامن عدد من المصلحين منهم الكردنال ولزي وزير هنري الثامن ملك انجلترا ، وقد ظل زهاء ست عشر سنة يسيطر على شؤون بلاده الدينية والسياسية ، وقد استخدم في الوصول الى أغراضه والاحتفاظ بسلطانه كل وسيلة مستطاعة وقد غضب هنري عليه وعزله في عام 1529 ثم صادر أملاكه وامر باعدامه .

74. اما الشخصية الأخرى فهو الاسقف جون كولت Johncolt (1467 – 1519) وكان من رجال الدين والتربية الانجليز الذين نادوا بالاصلاح وطعنوا على جهل رجال الدين وفساد اخلاقهم .

- سدني دارك ، المصدر السابق ، ص29 .

75. Hayes , op . cit. , p86 .

.76
د. سعد زغلول عبد ربه ، دراسات في التاريخ الأوربي الحديث ، مصر ، 1983 ، ص29 .

77. جيمس الأول James I ملك انكلترا (1603 – 1625) اضطهد المتطهرين ودبرت في أيامه عام (1605) مؤامرة البارود المشهورة لنسف البرلمان .

Green , op . cit . . p173 .

78. تشارلس الأول Charlest I : ملك انكلترا (1625 – 1649) في ايامه أشتد النزاع بينه وبين الشعب وقامت الثورة التي انتهت بمحاكمة الملك واعدامه في سنة 1649 واعلان الحكم الجمهوري في انجلترا .

I bid .p.p 324-331 .

79. أوليفر كرمويل : ولد في سنة 1599 ، كان ذا ارادة حديدية وطبع ناري وعقيدة راسخة ، وقد نالت انجلترا في عهده من الرخاء والتقدم ما لم تنله الا في أدوار قليلة من عهد ملوكها العظام .

د.محمد محمد صالح ، تاريخ أوربا منذ عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية 1500 – 1789 ، بغداد ، 1981 ، ص391 .

80. Encyclopedia Britannica , op.cit . , p.64 .

81. محمد مظفر الادهمي ، المصدر السابق ، ص297 .

82. Haycs .c. , op . cit. , pp. 188-214 .

83. Encyclopedia Britannica , op cit . p60 .

84. I bid , p. 61 .

85. the American peoples Encyclopedia , op . cit . p37 .